المحاضرة 04: جغرافية اللغة. جغرافية اللهجات العربية.

لم تُعرف كلمة لغة قديما بالمفهوم الذي نعرفه الآن، يقول إبراهيم أنيس في هذا الشأن"يظهر أن العرب القدماء في العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبِّرون عمّا نسميه نحن باللغة إلاَّ بكلمة اللسان، تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى في معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية، وقد يُستأنس لهذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم من استعمال كلمة اللسان وحدها في معنى اللغة نحو 8 مرات"كقوله تعالى(هذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) الأحقاف، آية 12. وقوله تعالى(نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) الشعراء.

وتُطلق كلمة لغة على اللهجة المعيَّنة.

تُعدُّ اللغة العربية من أقدم وأعرق اللغات فقد نشأت "في أقدم موطن للأمم السامية(الحجاز ونجد وما إليها) وبالرَّغم من ذلك فإن الآثار التي وصلت إلينا منها تعدُّ من أحدث الآثار السامية(...) وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد، فالزمن بعيد وعميق، ولهذا فإننا لا نعلم شيئا عن طفولة اللغة العربية وما مرت به من أطوار في عصورها الأولى"

إن للبيئة والمكان أثرا واضحا في السكان، فكما يظهر هذا الأثر على وجوههم وألوان معيشتهم فكذلك يظهر في أدائهم اللغوي. وعليه فدراسة المكان الذي تحيا فيه اللغة

مهمة وضرورية، ودراسة اللغة العربية يقتضي منا إلقاء الضوء على شبه جزيرة العرب والقبائل العربية التي أقامت بها، هذا إذا علمنا أن الدرس اللغوي الحديث يعتمد كثيرا على الجغرافيا اللغوية، فتحديد المواقع أو الجغرافية اللغوية سيساعد على توضيح العلاقات بين اللغات وعوامل التأثر والتأثير، لقد " قرَّر الباحثون سهولة بيان الحدود الجغرافية للغات فحدود اللغة العربية واضحة المعالم، فهي تمتد في الجزيرة والشام والعراق وشمال إفريقية ويمكن معرفة نهاية حدودها بابتداء اللغات المجاورة لها من فارسية وتركية وإفريقية وغيرها"

أما عن موطن اللغة العربية الأصلي فهو شبه الجزيرة العربية المتكونة من خمسة أقسام هي: اليمن، الحجاز، تهامة، نجد، العروض.

واللغة في ضوء ما وصل إلينا من آثار تنقسم إلى: عربية بائدة وعربية باقية؛ أما الأولى فتسمى بعربية النقوش(اللحيانية، الثمودية، الصفوية،...الخ) وسميت بالبائدة لأنها قد بادت قبل ظهور الإسلام، أما الثانية فهي العربية الباقية وهي لغة الأدب والكتابة والتأليف، ونشأت هذه اللغة في كل من نجد والحجاز ثم انتشرت بعد ذلك إلى بلدان أخرى، وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يُعرف بالأدب الجاهلي(شعرا ونثرا)

بعد تغلب لهجة قريش على اللهجات الأخرى، أصبحت لغة العرب"النموذجية" التي يدونون بها أشعارهم وخطاباتهم. فمن المعروف أن القبائل العربية كثيرة ومنتشرة هنا

وهناك، ومما هو معروف أيضا أن اللغة متى انتشرت في مساحة واسعة من الأرض، وتكلَّم بها طوائف مختلفة من الناس، فإنها ستتشعب إلى عدة لهجات.

فالعربية انقسمت منذ أقدم عصورها إلى لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والمفردات والقواعد والدلالة. واختصت كل قبيلة وكل جماعة_ في ظروفها الطبيعية والاجتماعية_ بلهجة من هذه اللهجات.

وقد احتكت هذه اللهجات المختلفة بعضها ببعض بفضل التجارة وطلب الكلأ(البدو الرُّحل) وتجمعها في الحج والأسواق والحروب الأهلية وغير ذلك. مما جعل هذه اللهجات تعيش في صراع لغوي، كُتب النّصر فيه للهجة قريش، ومن أسباب ذلك:

1_ العامل الديني: مكان مقدّس يحجّون إليه ليؤدوا مناسكهم ويزوروا أصنامهم ويقدِّموا لها القرابين،...الخ.

2_ العامل الاقتصادي(التجاري): كانت التجارة بين أيدي القرشيين، وبفضل هذا النشاط التجاري أصبحت الثروة بيد القرشيين(رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام).

3_ العامل السياسي: فالقوة الاقتصادية والدينية جعل منها قوة سياسية والسيادة أصبحت بيدها.

4_ العامل اللغوي: فلهجة قريش أوسع اللهجات وأغزرها مادة، وأرقها أسلوبا وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول.

وللغة المشتركة معالم تميّزها من أهمها:

1_ أنها مستوى لغوي أرقى من لهجات الخطاب الشفوي، فلها قواعدها وقوانينها، كما يتخذها الناس مقياسا لحسن القول وإجادة الكلام.

2_ هي ملك للجميع لا تُنسب إلى بيئة معينة، بل يلجأ إليها الجميع من أجل قضاء مصالحهم والتفاهم فيما بينهم.

ومن العوامل التي تساعد على الوحدة اللغوية، وتكوين اللغة المشتركة ما يلي:

1_ الدين: عامل مهم في إيجاد اللغة المشتركة، كالاجتماعات الدينية، المسابقات الدينية، الاجتماع في الحج، صلاة الجماعة والعيدين في المساجد، الندوات الدينية،...الخ.

2_ الأدب: كان من العوامل المهمة في نشر اللغة المشتركة، نشر الإنتاج الأدبي شعرا ونثرا بلغة يفهمها الجميع.

3_ الخدمة العسكرية والحرب: لاجتماع الجنود في الجيش دور مهم في إيجاد ونشر اللغة المشتركة، فإصدار الأوامر للجنود تتم بلغة مشتركة من أجل أن تُفهم وتُطبَّق.

4_ الإذاعة والتلفزيون: فهي من وسائل الإعلام المهمة، فبها يتم نشر اللغة المشتركة.

5_ الصحافة: تُكتب باللغة المشتركة التي يفهمها الجميع.

6_ المعارض والأسواق: تكثر فيها الاجتماعات، مما يقتضي استعمال لغة يفهمها الجميع.

7_ المدن الكبرى: تُستعمل فيها اللغة المشتركة(لأنها مزيج وخليط).

8_ الوحدة السياسية: تستلزم لغة مشتركة (بين الحكومة والشعب).

9_ الجامعات والمدارس: فهي خليط من الأفراد، فهم يتعلمون ويتفاهمون باللغة المشتركة.

10_ الزواج المختلط: استعمال لغة مشتركة مفهومة من الطرفين.

11_ العمل في دواوين الحكومة والمصانع: يستدعي استعمال لغة مشتركة تُفهم من طرف الجميع.